بسم الله الرحمن الرحيم
واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا

رابطة العالم الاسلامي
الامانة العامة
مكة المكرمة

ادارة المؤتمرات

ملخص بحث

# علاج المشكلات النفسية للمجتمع المسلم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد :

فان الانسان ذلك الكائن ذو التركيب الثلاثي ، المؤلف من : الهيكل الجسدي الذي يروح ويغدو به ، والغرائز الحيوانية المبثوثة في كيانه النفسي ، والروح العلوية الهابطة اليه من الملأ الاعلى والتي اليها مرد الفطرة الاسلامية النابضة في اعماق شعوره .

وانما الاسلام هو ذلك النور الهادي الذي وجهه الله عز وجل الى هذه الاركان الثلاثة في عمق الكيان الانساني . اي فلا يتكامل الاسلام في كيان الانسان ، الا اذا خضع له العقل ايمانا وتصديقا ، واصطبغت به العواطف حبا وتعظيما ، واستسلم له الاعضاء والغرائز سلوكا وتطبيقا .

وهذا هو معنى تكوّن البنيان الديني المتكامل ، من كل من الاسلام والايمان والاحسان . فالايمان مكانه الفكر والعقل ، والاسلام يهيمن على الظاهر من الكيان والاعضاء ، والاحسان صلة عاطفية تسري بالربط والتوثيق بين الفكر الذي آمن والكيان الذي استسلم .

وانما يتحقق الأثر التربوي في حياة المسلم ، من انسجام هذه الجوانب الثلاثة في كيان الانسان وتناسقها في الاتجاه الى هدف مشترك والسير على صراط واحد . بقيادة رشيدة من العقل ومصونة من حرارة العاطفة والوجدان . وذلك هو قصارى ما تهدف اليه فنون التربية ومناهجها قديما وحديثا في حياة الانسان .

ومن الثابت ان سائر الوسائل التربوية لم تنجح في السعي الى تحقيق هذه الغاية ، كما نجح الاسلام اذ يشيع سلطانه على الكيان الانساني ، متمثلا في اركانه الثلاثة التي أشرنا اليها .

* * *

بوسعنا الان ان نعلم مصدر المشكلات النفسية المتنوعة التي تطفو على سطح مجتمعنا الاسلامي ، ان مصدر ذلك هو ان جلّ المسلمين انما سرى الاسلام - في احسن الاحوال - الى كياناتهم الفكرية ثم وقف عندها ، ولم يتجاوزها الى مكمن العواطف والوجدان من أنفسهم . بل بقيت هذه العواطف ممزقة بين عوامل الشهوات والاهواء المتنوعة التي تطوف من حولها وتتربّص بها .

وعندما يتقلص سلطان الاسلام عن ساحة العواطف في كيان الانسان ، وينكمش على ذاته في سجن الدراية العقلية وحدها ، تبرز حالة من الازدواج المتشاكس في كيان هذا الانسان . فيغدو مسلما بعقله وفكره ، طليقا عن الاسلام بعواطفه ووجدانه ، ومن ثمّ بغرائزه أيضا .

ومن هذا المصدر الوحيد تتفرع سائر المشكلات النفسية المتنوعة التي نحن بصدد التعريف بها والبحث عن علاجاتها .

* * *

وبوسعنا ان نلخص الحديث عن اهم هذه المشكلات ، من حيث التعريف بها ، في المشكلات التالية :

(م ٠ ر)
٢/٠٦

أولا : <u>العصبية للذات ، والانتصار للنفس :</u>

ومرّد هذه المشكلة الى طبيعة الانانية ،التى هى من أخطر الآفات النفسية التى أوجب الاسلام على الانسان معالجتها والجهاد الدائب للتخلص منها .

وهى تتمثل فى (النزعة الفردية) عند بعض الناس ، وفى (النزعة الجماعية) عند آخرين .ولا شك ان كلا هاتين النزعتين تعبير عن كبرياء النفس وأنانيتها ،غير ان العصبية الناجمة عن (النزعة الفردية) أنانية مكشوفة واستكبار معلن ،أما الناجمة عن (النزعة الجماعية) فاستكبار خفى ،لا يتحرك الا تحت أقنعة الانتصار للحق وما يقضى به المنطق والعقل . فلا جرم أن خطر هذه النزعة الثانية أعمق فى النفس ،وأكثر انتشارا فى المجتمع وتأثيرا عليه .

ومن أسوأ آثارها سحق مشاعر الود والتآلف بين القلوب ،واشاعة عوامل الحقد والبغضاء فيما بين الجماعات ،وتحويل الامة والمجتمع الى فئات متناحرة متصارعة ،تحت اسم الدفاع عن الحق والانتصار له ! ..

ثانيا : <u>فقد الاستقرار النفسى والفكرى :</u>

وهذه المشكلة تنشأ بدورها عن عوامل اجتماعية يطول ذكرها .. وايا كانت هذه العوامل ، فمن الطبيعى ان تظهر فى حياة المجتمعات والشعوب عندما تمر من حياتها فى منعطف حضارى ، كالذى نمر به اليوم . غير ان البلاء العظيم الذى نعانى منه انما يتمثل فى طول الفترة التى استغرقها مرورنا فى هذا المنعطف ،حتى لقد كدنا ان نعدّ انفسنا سجناء فيه . تقطعت بنا السبل فيه عن الماضى ،فما نملك شيئا من ذخره أو مقوماته ،اللهم الا الوصف والذكرى ، بعد فخر الانتماء والانتساب ، وتخلفت بنا العثرات فيه عن المستقبل ، فما يربطنا به الا الاحلام والامانى . ( ارجع فى بيان العوامل التى ادت الى انحباسنا فى هذا المنعطف ، الى البحث الاصلى ) .

هذا الواقع كان لابدّ ان يؤدى الى طرح افكار وشعارات متناقضة ،بعضها يتنكر للماضى كله ، وبعضها يذهب الى نقيض ذلك . .وآخرون يأخذون - فيما يزعمون - بمنهج معتدل وسط .وبوسعنا ان نلاحظ انعكاس هذا الصراع على مناهج التربية والتعليم وانتشار اصدائه فى اجهزة الاعلام ومنابر الارشاد والتبليغ ،وان نتبين مدى تأثيره على نفسية الجيل الناشئ الجديد .

ثالثا : <u>مشكلة انجذاب الشخصية المسلمة الى فلك الحضارة الغربية :</u>

ما من ريب فى ان الامة الاسلامية ( فى مجموعها ) تقع اليوم ،بكل موازينها الفكرية ومشاعرها الوجدانية فى منطقة الجاذبية الغربية ، فهى مهما تحركت لا تتقلب الا ضمن سلطان التأثر بها والدوران حولها والانعطاف اليها .

ولا شك ان ثمة اصواتا ترتفع هنا وهناك ، يقف اصحابها خارج منطقة النفوذ ، أو على حافتها ،غير ان هذه الاصوات لم تشكل الى الان تيارا يتمتع بأى جاذبية متكافئة .

ومن أبرز آثار هذه الظاهرة ،ان اصولنا الثقافية ملقاة اليوم على رفوف الاهمال ، أو مرمية فى زوايا النسيان .. وان فنون التربية وعلم النفس والاجتماع والفلسفة والاخلاق ، التى تدرس فى مجتمعاتنا ،ليست الا مجموعة تصورات وضعت تعبيرا عن النظرة الغربية الى الوجود ، ودعما للوضع الاجتماعى الذى ارتضاه لنفسه الرجل الغربى ،اعتمادا على قناعته واستلهاما من تاريخه وتراثه .

ومن أخطر آثار هذه الاثار ان كثيرا من أرباب الفكر فى حياتنا الثقافية والاجتماعية انتهوا الى حالة من الانجذاب النفسى لمحور الحضارة الغربية ، جعلتهم لا يبالون بطرح الاقتراح القائل بـ ( ضرورة قراءة جديدة للقرآن ، يتم فيها تجاوز قيود التفسير اللغوى ، بحيث يتوصل من وراء هذه القراءة الجديدة الى صيغة يتم فيها التوفيق بين الاسلام والحضارة الغربية ) (١)

* * *

العلاج الكلى للمشكلة الكلية :

اذا كانت هذه المشكلات الثلاث ، فروعا لمشكلة أساسية كبرى ، تتمثل كما ألمحنا فى ان جلّ المسلمين اليوم انما يسرى الاسلام الى قناعاتهم الفكرية ثم يقف عندها ، فلا ريب ان علاج هذه المشكلات الفرعية لابّد ان يكون هو الآخر فرعا عن علاج اساسى يجب البدء به والانطلاق منه . فما هو هذا العلاج الاساسى ؟

هو : بذل الوسائل الممكنة لاخضاع الكيان الانسانى كله للاسلام . بحيث يتفهمه العقل ، ويصطبغ به الوجدان ، ويخفّ الى تطبيقه البدن والاعضاء .

غير ان جدوى هذا العلاج يتوقف على وجود الرغبة الصادقة فى استعماله . ذلك لان روح العمل ، أى عمل ، انما تتمثل فى الرغبة الصادقة فى النهوض به ، وبدون هذه الرغبة لا يعدو ان يكون العمل أمنية من أمانى النفس أو حديثا يجتره اللسان ..

اذن ، فمن لك بايجاد الرغبة فى استعمال العلاج الكلى لهذه المشكلة ؟ وكيف السبيل الى غرسها فى النفوس ؟ ( أرجو الرجوع للوقوف على سبيل ذلك تفصيلا ، الى البحث الاصلى )

... ... ... ...

فاذا تحققت الرغبة لدى المسلم فى ان يمتد سلطان الاسلام على كيانه كله ، انتقل بذله من ساحة النفاق مع الله ومع الناس ، الى ساحة الصدق مع الله ومع الناس .. ويتهيأ بذله لقبول العلاج واستعماله .. وانما علاج ذلك السير فى طريق تزكية النفس . والسير فى هذا الطريق هو المعنى بالجهاد فى قوله تعالى ( وجاهدوا فى الله حق جهاده ) وهو المعنى بكلمة التزكية المتكررة فى مثل قوله تعالى ( هل لك الى ان تزكى وأهديك الى ربك فتخشى ) وقوله تعالى ( قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها )

ولكن ما التزكية ؟ وما المنهاج العملى لبلوغها ؟

يتلخص معنى التزكية فى السعى الى تخفيف ضجيج الشهوات والاهواء التى تحيط بالروح ، والى فتح ما أمكن من النوافذ بينها وبين عالمها العلوى الذى هبطت منه وتظل فى حنين دائم اليه ، عن طريق تعهدها بالغذاء الذى تحتاج اليه وتنمو وتنتعش به .. ومن الثابت يقينا ان الروح ان تلقت غذاءها الذى تحتاج اليه ، والذى سنتحدث عنه ، انتعشت وأشرقت على النفس كلها بضياء علوى يغمرها هبا لله ومهابة منه ، وهيمنت بمشاعرها وأشواقها على مكمن الغرائز فى النفس ، بعد ان كان هو المهيمن على الروح والمحيط بها من الاطراف . (أنظر بيان أهمية الروح ودورها فى كيان الانسان فى أصل البحث )

* * *

(م٠ر)
٢/٦م

(١) صاحب هذا الاقتراح الدكتور احمد ابوزيد . انظر العدد الرابع من مجلة (عالم الفكر) الكويتية المجلد الثانى عشر .

## المنهج السلوكى الى التزكية :

لقد عرفنا ان السير فى هذا المنهج هو المعنى بالجهاد فى كثير من آيات القرآن الكريم ونحن لن نرسم خطى هذا الجهاد من خلال عرض فلسفة عميقة ذات دبياجه واطار .. ولا من خلال اقتراح منهج حركى تضبطه التنظيمات الشكلية ، وتتحرت فى داخله الالسنة المتناقشة والاعضاء المتهارجة .

بل سنتبصره من خلال ماهو أبسط فهما واقرب منالا .. سنتبصره من خلال اوضح الايات التى نقرؤها صباح مساء فى كتاب الله عز وجل غير ان كثيرا منا من ترياق هذه الايات ساهون معرضون وهو يتلخص فى اتباع مايلى :

أولا : تفكر الانسان فى ذاته ومصيره ، وفى ان الله يراقبه فى كل آن ، وايقاظ العقل لذلك عند كل غفلة ونسيان .

والفكر حركة العقل .. فمن دونه لا يغنى العقل شيئا .

والفكر هو الذى يحرر العقل من سلطان النفس وغوائلها .. فمن دونه لا يستبين الانسان الفارق بين دوافعه العقلية ورعوناته النفسية !...

غير ان دوام الفكر يحتاج الى موضوع يشتغل به الذهن ويطوف حوله العقل .

والموضوعات التى تعد أداة لذلك كثيرة ومتنوعة ( ونحيل القارئ فى الوقوف عليها وتبين مدى أهميتها الى البحث الاصلى )

ومهما يكن ، فان التفكر ، كلما كان فى نجوة عن الناس وضوضائهم وملهيات الدنيا وشواغلها ، فان ثماره تكون أتم وأسرع ، لاسباب علمية نفسية لا يتسع المقام لخوضها .

ولست أدعو بهذا ، الى الانعزال عن المجتمع والعيش بعيدا عنه ، فليست هذه فطرة الاسلام ولا هى وظيفة المسلم ولكنى ادعو المسلم الى التأسى فى ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ كان يأخذ نفسه بساعات من الخلوة والبعد عن الناس ..

أدعوه الى ان يخلو الى عقله كلما أراد أن يرجع الى حساب صندوقه ، أى كما يصنع التاجر اذ ينخرط كل يوم فى صخب الناس وضجيج الاسواق .

ولكن ذلك لا يمنعه ان يخلو الى نفسه فى مكان من داره بعيدا عن اهله واصدقائه ليستغرق فى النظر فى دفاتره وحساباته . ان من الواضح جدا انه لولا اهتمامه بهذه الساعات من العزلة فى عمره التجارى لما قدّم له متجره الذى يغصّ بالغادين والرائحين الا الندامة والخسران .

ثانيا : التزام ورد منتظم دائم من تلاوة كتاب الله وما يتبعه من التسبيح والتهليل والاستغفار .. ولا اعلم خلافا بين اهل العلم فى انه لا بد للمسلم من ان يتخذ لنفسه وظيفة دائمة من هذه الاعمال .

وان افضل الاوقات لذلك هو البكور والاصال ، كما نص على ذلك كتاب الله عز وجل ، وكما دلت عليه الاحاديث الصحيحة الكثيرة . ولا التفات الى من يزعم ان الذكر عبادة مطلقة وان تعيين وقت خاص لها بدعة محرمة !. اذ ان ثمة فرقا كبيرا بين العبادة المقيدة بالاطلاق عن وقت معين ، والعبادة المطلقة عن ذلك القيد ويعرف الفرق بين هذين القسمين أولا والتحقيق من اهل العلم ( وليراجع أصل البحث )

أما أثر ذكر الله عز وجل فى تحرير النفس من مشكلاتها وافاتها ، فحدث عن ذلك ولا حرج .. انه الفلاح الاعظم بل الاوحد لتزكية النفس وكنس كل ماقد يرسب فيها من آفات الانانية والحقد والحسد والتعلق بالدنيا بكل صورها وانواعها ، وهو الاداة الوحيدة لتحويل النفس الامارة الى نفس لوّامة فراضية !.. وذلك هو السبيل الى الاحسان الذى امر به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثالثا : ( وهذا علاج سلبى ) تجنب اكل الحرام ، فان الجسم الذى ربى على الحرام ، تكمن فيه ، على الغالب ، نفس نزاعة الى الانحراف والانفلات من حدود الله عز وجل ، مهما انضبط داخل حدوده فى الظاهر .

والمال الحرام يبدأ من سلب اموال الاخرين بدون رضا ، او بدون وجه شرعي ، ثم يتنوع الى انواع مختلفة حتى ينتهي عند الشبهات التي هي مظنة الحرام .

وما أكثر المسلمين اذا عددناهم بمقياس الصلاة والعبادات الظاهرة ، واعتياد اللسان على المواعظ والكلمات الدينية المنمقة ، وما اقلهم اذا عددتهم بمقياس التعفف من المال الحرام ، والتزام حدود الله في المأكل والمشرب .

رابعا : كثرة الدعاء وشدة التضرع الى الله عز وجل .

وهذا العلاج عبادة بحد ذاتها ، ذات اهمية قصوى ، بل هو مخ العبادة ولبها : بل هو العبودية التي تمد ارقى مراتب القرب الى الله عز وجل وكلنا قرأ الدليل على ذلك في كتاب الله عز وجل .

وما اكثر من يهونون من امر الدعاء ، محتجين بان مايطلبه العبد ان كان مسطورا في قضاء الله ، لم ينفعه الدعاء في طلب الوقاية منه ، وان لم يكن مسطورا لم يحتج الى الدعاء من اصله .

ولا نريد ان نجيب عن هذا الاحتجاج بما قرره العلماء في هذا الصدد ، فان بحثنا هذا يتسم بطابع التبسيط ، لذا فاننا نقول : ان الله عز وجل امر عباده بالدعاء ووعدهم بالاستجابة ووعد الله صدق لا يلحقه خلف . وهذا مايهم المسلم معرفته ، فمالنا وللبحث فيما ليس من شأننا ولا اختصاصنا ؟ وفيم يؤرق الانسان فكره في امر عائد الى تدبير الله وعظيم قدرته وسلطانه ؟ قضاء الله حكم من احكامه واستجابة الدعاء وعد قطعه على نفسه وانما وظيفتنا الخضوع لحكمه والايمان بوعده ، وان نكل تدبير الامر اليه .

* * *

أثر هذه العلاجات في حل المشكلات الفرعية :

اذا استقام المسلم على استعمال هذه العلاجات ، فان وجدانه الانساني يصطبغ بالاسلام رغبة ورهبة واجلالا لله عز وجل . فلا تقوده العصبية عندئذ على طريق الدراسات العلمية والفكرية أو في نطاق الدعوة الى دين الله عز وجل ، لان من شان تلك العلاجات ان تفجر نوازع الاخلاص لله في قلبه ، وهيهات ان يتجاور الاخلاص لله مع العصبية للنفس في قلب امرئ واحد .

ولن تجذبه عندئذ بوارق الحضارة الغربية ، لان حبه وتعظيمه لله عز وجل لا يدعان في قلبه متسعا لحب شيء غير دين الله عز وجل مما قد يتناقض معه ، ولان تنامي شعوره بالعبودية لله عز وجل ، يشمخ به الى درجة من الاعتزاز ، لا يرى معها وجها للتباهي بشيء يتجافى ويختلف عن دين الله عز وجل .

ولن يعاني من اي اضطراب نفسي ، مهما تجمعت عوامل ذلت من حوله وكيف يجتمع اضطراب النفس مع دوام ذكر الله ومراقبته ، وقد قال الله في محكم كتابه (الا بذكر الله تطمئن القلوب) . صحيح ان الذكر يبعث الوجل في القلب كما قال عز وجل (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) ولكن اقتحام القلب مخاضة هذا الوجل هو الجسر الذي يجتازه الى تلك الطمأنينة .

* * *

واخيرا - اخطاء يجب التخلص منها :

* من أهم هذه الاخطاء ، مايلقاه هذا النوع من العلاج فى نفوس كثيرة ، لا اقول من عامة الناس ، بل من العلماء والموجهين فيهم ، من الاستهانة به والتهوين لشأنه .. وانه لامر عجيب ومؤسف ، ولا ارى له من سبب الا مايذهل عنه جل هؤلاء الناس ، من ان الاسلام ليس مجرد مذهب فكرى حركى وانما هو قبل ذلك ممارسة لمعنى العبودية لله عز وجل . فهو المنطلق الاول لكل عمل وحركة وسعى .

* ومن هذه الاخطاء ان كثيرا منا يركز جل اهتماماته فى نطاق الدعوة الاسلامية وتربية النفوس على النقاط السلبية ، دون اى اهتمام بالتنبيه الى مايقابلها من النقاط الايجابية له..

فالتحذير من البدع وتفنيد جزئياتها . وتعقب الاجتهادات والاراء المنحرفة او الشاذة وتتبع الاخطاء الفكرية او السلوكية التى قد ينزلق اليها بعض اهل العلم والارشاد - هو قوام عمل الدعوة الاسلامية فى حياة هؤلاء الناس !..

ونحن لا نشك فى اهمية محاربة البدع وزغل العلم ، بعد الاتفاق على انه كذلك ، ولكن لابد ان نتذكر بان ذلك ليس الا الجزء التحضيرى والتمهيدى من عمل الدعوة والاصلاح . اما الجوهر الاساسى منه فانما هو البناء الايجابى .

لم نر واحدا من هؤلاء الاخوة ، أقبل فتحدث مرة عن ضرورة التخشع فى الصلاة ، وعن الاسباب التى توصل الى ذلك !.. أو تحدث عن ضرورة تربية محبة الله فى القلب ، وتحقيق معانى التوكل عليه والرضا عنه والمراقبة له فى حنايا النفس والفؤاد !.. او نبه الى ضرورة الاتصاف بالاخلاص لله فى العمل ، والصدق فى النية والعزم !.. هذا مع ان مشكلة جل شبابنا الذين يقبلون الى الله بعد ادبار ، انهم يبحثون عمن يرشدهم الى ينابيع هذه المعانى التى هى لباب الدين ، ويعلنون عن ظمئهم الشديد لذلك ، ولكنهم قلما يجدون امامهم الا من يهتم بملاحقة النقاط السلبية ، فهو فى شغل شاغل عنهم بسببها ، اومن لا يعنيه شئ من هذا الامر لا فى سلبياته ولا ايجابيته ، اذ هو لا يتعامل الا مع البنية الفوقية للاسلام ، المتمثلة فى الحركة والجدل والفكر ، او من يلبى نداءه ويسعفه فيما يبحث عنه ، ولكنه يزجه فى بدع باطلة وامور مخترعة وانحرافات لا تقرها موازين الشرع .

* ومن هذه الاخطاء ان كثيرا منا لا يروق له من الكتب والامهات التى تفيض بها مكتبتنا الاسلامية ، الا تلك التى تخوض فى مسائل العلم وتقارن بين الآراء بالجدل والنقد والتفنيد !.. فهى اليوم هواية كثير ممن يشتغلون بالثقافة الاسلامية ، اما الكلام التربوى الاخاذ عن النفس الانسانية وادوائها ، والطرق التربوية السلمية لمعالجتها ، فهم عن ذلك كله معرضون .

* * *

وبعد ، فان مدار كل ماقد ذكرت ، على وجود شعلة الاخلاص لدين الله فى طوايا القلب . فان تحققت هذه الشعلة ، فما ايسر ان يتضح وجه الحق فى كل ماقد ذكرت .. وما أيسر ان يطوله النقد والنقض .. وان يتلاشى مضمونه فى ضرام النقاش والجدل حوله مهما وجزرا .

فاللهم اكرمنا بنعمة الاخلاص لوجهك ، وقنا فتنة النفس والهوى .. والحمد لله رب العالمين .

( محمد سعيد رمضان البوطى )

( م . ر )
٦ / ٢م